



### مشهد 1 :

دوما... مظاهرة عند الجامع الكبير... ابتعدت أنا قليلاً في محاولة مني لالتقاط صور من زوايا مختلفة... شكلي والثياب التي أرتديها والكاميرا التي أحملها في يدي، جميعها أوحى لذلك الرجل الذي لا يتجاوز الستين من عمره بأنني لست من سكان المنطقة، فاقترب مني بخطى خجولة وبدأ يتأملني عن قرب... شيء ما جعلني أحس بأن أحداً يراقبني رغم أن نظري كان مركزاً على "غرافيتي" لوجه بشار الأسد على شكل شيطان كان يملاً جدران الجامع...  
التفت إلى يسارِي لأجد ذلك الرجل البسيط الذي يرتدي "سروالاً" أسود وسترة أظن أنه لم يقتن غيرها منذ عدة سنين، وفي عينيه حزن ورجاء لم أستطع أن أدير ظهري لهما. اقتربت منه وألقيت عليه التحية:  
- مرحباً عم..  
- أهلين يا بنتي... أنتي مو من هون... صحفي؟  
- يعني... نوعاً ما... كيفك عم؟  
- يعني فيك تساعديني؟

وبدأ يحكى لي قصة ابنه الذي استشهد يوم الجمعة الفائت بعد أن أطلق الأمن النار على المظاهرة التي خرجت بعد صلاة الظهر. أخرج من جيبه جوالاً، وبدأ يريني صور جثة ابنه، وفي الوقت نفسه كانت أخت الشهيد تقترن منا وهي ترفع صورة كبيرة لأخيها وقد كتب اسمه تحتها... لم أملك إلا أن أستمع إليهم، لم أعرف ماذَا يمكن لي أن أقدم لهم... أب مفجوع، وأخت لا تكاد تصدق، وأخت أصغر لا تعي ما يحدث... وأنا، صحفي مشهورة على ما يبدو، تستطيع أن تستمع إليهم، وهو يظنون أنها قد توصل حكايتهم إلى كل الدنيا... آه يا عم لو تدري... شهداؤنا أصبحوا كثُر، وكثيرة هي القصص التي علينا أن نرويها...

### مشهد 2 :

برزة... وتشييع جديد...  
قبل أن نذهب كان حديثنا وهمنا الشاغل هو إحساسنا بعدم جدوانا أمام كل هذه الدماء... فما فائدة مقالة نكتبها أو صورة نلتقطها؟ ليب إمكاننا أن نوقف آلة الموت اللعينة تلك، ولو ليوم واحد...  
وهناك، في برزة، كنا نهتف بملء حناجرنا "صمتم يقتلنا، وغير الله ما إلنا"، حين بدأ إطلاق رصاص كثيف. ركضنا...

تفرقنا... وفقت أنا بعيداً قرب أحد المنازل، وإذا بأمرأة عجوز تقترب مني... "الله يحميكون يا بنتي... هاد تشيع ابني كان... الله يحميكون أنتو أملنا... الله ينصركون... لا تيأسوا يا حالة... ابني ما مات بلاش ودموا مارح يروح هدر... أنتو الأمل...".  
وابعدت وهي لا تمل من ترديد هاتين الكلمتين: "أنتو الأمل... أنتو الأمل...".

مشهد 3:

تدمر... الزيداني:

منذ حوالي أربع سنين علم بوجود فرص عمل في الزيداني... ترك منزله البسيط في تدمر وذهب مع عائلته بحثاً عن رزقه هناك... عاشوا حياة هادئة تشبه حياة أية عائلة في تلك المدينة الها媢ة شتاء والصاخبة صيفاً، وأنجبا طفلاً جديدة منذ حوالي السنة...

في إحدى حملات النظام الهمجية على المدينة، قرر أن يهرب وعائلته ويعود إلى تدمر بحثاً عن أمان افتقدوه منذ شهور... وفي طريقهم إلى دمشق أطلق عناصر أحد الحواجز الأمنية النار عليهم، فأردو ابنيه قتيلين، وأصيبت ابنته ذات العشرين عاماً في ذراعها... رأيتم بعد أن وصلوا إلى أحد المستوصفات في دمشق... هو، لم يعد يملك من الدنيا سوى ابنته الجريحة، وابنته التي لم تك تبلغ من العمر عاماً واحداً، وزوجته التي لم تكن تراني حتى عندما كانت تنظر في عيني، بل ربما كانت ترى في كل عين واحداً من أولادها الذي استشهدوا قبل ساعة أو أكثر قليلاً، وإله لم يبق له سواه كي يلتجأ إليه... "يا الله... يا الله ما إلنا غيرك... يا الله..."

مشهد 4:

القابون...

منذ أكثر من شهر وأنا ألح عليه كي يأخذني إلى القابون لأنقط بعض الصور، والبارحة فقط وافق...  
بعد صلاة الظهر اتجهنا إلى هناك، دخلنا من طرق فرعية تجنبنا لمزورنا على أي حاجز، واستطعنا أن نتجول بحرية في العديد من الطرق والتقطت صوراً لجدار زينتها كلمات "حرية... أرحل يا سفاح... بدننا المعتقلين... المجد للشهداء... وأطفالنا يعودون إلى بيوتهم راكضين وبعضهم يهتف بينه وبين نفسه وبصوت لا يكاد يسمع: "يلعن روحك... أبو حافظ...".  
"الم تكتفي من التقط الصور؟ الوضع ليس مريحاً جداً ومن الأفضل أن تخرج من القابون... وأنا أريد أن أمر على منزل والدي لألقى عليهما التحية...".

وضعت الكاميرا في حقيبتي واتجهنا نحو منزل أهله... الوضع يبدو طبيعياً... ركنا السيارة في الحارة المجاورة وسرنا نحو المنزل، قرعنا الجرس واستقبلنا والده ووالدته بابتسمة عريضة وترحيب اعتدت عليه في كل مرة كنت أرافقه فيها لزيارة أهله... دخلنا بعد إصرار والدته كي نحتسي كأساً من الشاي، وقبل أن تنتهي هي من إعداده، سمعنا قرعاً قوياً على الباب... "افتحوا الباب... منعرف أنك جوا... افتحوا الباب أحسن ما نخلعوا"، وما هي إلا ثوانٍ حتى خلعوا الباب ودخلوا، مدججين بالأسلحة. لم يعرف ماذا له أن يفعل، حاول تسلق الحائط القريب والهروب إلى المنزل المجاور، ولكن رصاصة خرجت من فوهة إحدى البنادق في نفس اللحظة واحتقرت ظهره لتستقر في صدره، وترنح هو ليسقط على الأرض وسط صرخ أمه، وذهول أبيه، ودموعي التي بدأت تنهمر وأنا أصرخ فيهم: "وحوش... وحوش... اطلعو برا... اتركونا بحالنا واطلعو...".

هو... كان من أوائل الناس الذين خرجن للتظاهر وأحد أهم المطلوبين في القابون...  
أمه... احتضنت جثمانه المدمى بآهاتها وتحبها الذي علا صوته حتى السماء...

أبوه... لم يملك سوى أن يذرع فناء المنزل جيئه وذهاباً، وهو يسبح بحمد الله وشكراً، فابنه أصبح شهيداً، وهو الآن "أبو الشهيد"، وسيفخر بهذا اللقب حتى مماته...

المصدر: صباح سوريا

المصادر: